التَّوليد اللغوي وتجلِّياته في الشِّعر العبَّاسي– مقاربة وصفيَّة تحليليَّة في ديوان المتنبِّي–

د . حاج هني محمَّد ، د . جميـلة روقـاب .

(جامعة حسيبة بن بوعلي– الشلف) .

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة أهمية الشعر في تنمية اللغة العربية، وبيان دوره في إثراء رصيدها المفرداتي بعد عصر الاحتجاج؛ وذلك من خلال رصد ملامح التوليد اللغوي في الشعر العباسي؛ انطلاقاً من إجراء مقاربة وصفية تحليلية في ديوان المتنبي، بغية التأكيد على مكانة هذا الشاعر في التراث العربي، والسعي لإبراز خصائص لغته الشعرية، مع محاولة تحديد أشكال التوليد اللغوي في شتى الأغراض الشعرية، وبيان السبل المنتهَجة في ذلك.

الكلمات المفتاحية: التوليد اللغوي؛ الشعر العباسي؛ المتنبي؛ الوصف؛ التحليل.

Abstract :

This research aims to study the importance of poetry in Arabic language development, and showing his role in the enrichment of their vocabulary stock after the period of reference, by observing the features of linguistic neology in Abbasi poetry; from proceeding an analytical and descriptive approach in the collection of poems of Al-Mutanabbi, in order to emphasize the position of this poet in the Arab heritage, and seek to clarify his poetry language properties, with an attempt to identify the neology linguistic forms, in various poetic purposes, with showing the mechanisms followed in this operation.

Keywords: linguistic neology -Abbasi poetry- Al-Mutanabbi- Describe- analysis.

مقدمة:

يعدّ الشعر العباسي مجالاً خصباً للدراسات قديماً وحديثاً، لذا تناوله اللغويون والأدباء والنقاد بالدراسة والبحث، كلّ حسب اختصاصه، ولهذا ارتأينا تناول جانب من الدراسات اللغوية حول التراث الشعري العبّاسي الذي شهد تفكك الدولة العباسية وتناثر الدويلات الإسلامية التي قامت على أنقاضه، لكنها فترة نضج حضاري وتصدّع سياسي وتوتر وصراع عاشها العرب والمسلمون، وفي تلك الفترة تحديداً كانت نشأة أبي الطيب المتنبي، وغيره من الشعراء العباسيين، وما اتسم به الشعر من ملامح الحداثة وتجاوز المألوف، فخصّصنا بحثنا هذا للتوليد اللغوي في نظم الشعر عند المتنبي، إضافة إلى حديثنا عن أهمية التوليد في تجديد اللغة العربية، وتحيينها واستمرارية نمائها عبر العصور، ومن الإشكاليات التي يروم البحث معالجتها: ما هي آليات التوليد اللغوي في قول الشعر؟ وما مقدار توظيف تلك الآليات من طرف المتنبي في شتى الأغراض التي نظمها؟ وهل هناك علاقة بين نظم الشعر وتوليد الصيغ الجديدة، واستحداث الألفاظ والمفردات الجديدة في لغتنا العربية؟

مدخل:

إنّ من خصائص العربية التي عدّها العلماء ما تمتاز به هذه اللغة من اتساع الأبنية، وكثرة الصيغ التي تستوعب المعاني، التي يمكن أن تجيش بها نفس الإنسان في أي وقت من الأوقات، فالعربية لغة انصهارية؛ حيث يقوم الجذر بوضع

البنية الأساسية للكلمة، ويتولى الوزن بناء هيكلها العام عن طريق توزيع الحركات على مختلف أصوات الكلمة، كما يقوم بتوزيع السوابق واللواحق إلى مكونات الجذر بهدف توليد الكلمات، ولما كان التصريف هو سبيل الوصول إلى تلك الصيغ فقد قالوا: "أمّا التصريف فإنّ من فاته علمه فاته المعظم"[1]، لذا يرنو هذا البحث إلى إضافة رؤى جديدة مُعمّقة تتناول الحالة الإبداعيّة عند أحد شعراء العصر العباسي، من خلال تناولها تناولاً علميّا موضوعيّا بعد ما حظي به من اهتمام بحثيّ يؤكّد مكانته السامقة في التراث الشعري العربي واللغوي من خلال التطرق إلى إبراز التوليد اللغوي في قول الشعر عند المتنبي، وذلك نظرا لأهمية التوليد في صياغة الكلام ونظم الشعر خصوصا، إضافة إلى فضل الشاعر الكبير في تنمية الثروة اللغوية بتكثير مفرداتها، ممّا جعل اللغة جسما حيّا، تتوالد أجزاؤه وتتجدّد صيغه كلّما تجدّدت المعاني والمستجدات.

1– المتنبي: حياته ومكانته الشعرية:

هو أحمد بن الحسن بن عبد الصمد الجحفي الكوفي الكندي أبو الطيب الملقب بالمتنبي، ولد سنة (303 هـ– 915م) بالكوفة في منطقة تسمى كندة[2] وإليها نسبته، ونشأ بالشام ثمّ تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس، وهو الشاعر الحكيم وأحد مفاخر الأدب العربي، له الأمثال السائرة والحكم البليغة والمعاني المبتكرة الكثيرة، ويعتبر المتنبي من أعظم شعراء العرب، وأكثرهم تمكناً باللغة العربية وأعلمهم بقواعدها ومفرداتها، صاحب كبرياء وشجاع طموح محب للمغامرات، في شعره اعتزاز بالعروبة، وتشاؤم وافتخار بنفسه فنظم أول أشعاره وعمره تسع سنوات؛ أي قال الشعر صبيا وتنبأ في بادية السماوة الواقعة بين الكوفة والشام، فتبعه كثيرون اشتهر بحدّة الذكاء واجتهاده وظهرت موهبته الشعرية باكرا، وفي بادية السماوة أقام فيها سنتين يكتسب بداوة اللغة العربية وفصاحتها، ثمّ عاد غلى الكوفة ليتتلمذ عللى يد شعراء العصر العباسي على غرار: أبي نواس(ت199هـ) وابن الرومي(283 هـ) ومسلم بن الوليد (208 هـ)، وابن المعتز(296هـ)، وقبل أن يستفحل أمره خرج إليه أمير حمص ونائب الإخشيد فأسره وسجنه حتّى تاب ورجع عن دعواه، توفي المتنبي عام (354هـ)، وفد على سيف الدولة ابن حمدان صاحب حلب فمدحه وحظي عنده بمكانة مميزة، ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدي (ت969م)؛ وهذا الأخير هو أحد حكام الدولة الأخشيدية، إذ أصبح سنة (946م) والياً من قبل العباسيين على مصر حيث حكمها ثم توسّع إلى بلاد الشام، حيث دام حكمه لمدة 23 عاما وهو صاحب الفضل في بقاء الدولة الإخشيدية في مصر، ويذكر أنه كان عبداً وخصياً[3]، وطلب منه أن يوليه فرض كافور طلب المتنبي عندها غضب الشاعر وانصرف يهجوه، وبعدها قصد العراق وفارس فمدح عضد الدولة ابن بويه الديلمي في شيراز، وعضد الدولة هو أبو شجاع فناخسرو الملقب عضد الدولة بن ركن الدولة أبي

[1]– السيوطي جلال الدين، المزهر، ضبط وتصحيح، فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ– 1998م، ج:1، ص:276.

[2]– كندة: منطقة تقع حاليا على مسافة عشرة كيلومترات من النجف وخمسة وستون من مدينة كربلاء، ينظر: تاريخ الحضارة العباسية، محمد سهيل طقوش، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط7، 1430هـ– 2009م، ص:248

[3]– أمين الخولي وآخرون، تاريخ الحضارة المصرية، مكتبة مصر، القاهرة، ط1979م، المجلد2، ص:47.

علي الحسن ابن بويه الديلمي المتوفى (372 هـ)[4]، عاد المتنبي إلى موطنه و تحديداً لمسقط رأسه الكوفة، فعرض له فاتك بن أبي جهل الأسدي– الذي هجا المتنبي ابن أخته ضبة بن زيد الأسدي بقصيدته البائية المعروفة– في الطريق بعصبة من أصحابه ليقتل ومن كان معه ببغداد وحدث هذا عام (354هـ الموافق لـ 965م).

أفضل شعر المتنبي كان في الحكمة وفلسفة الحياة ووصف المعارك، إذ جاء بصياغة قوية محكمة ترك تراثاً عظيماً من الشعر القوي الواضح، يضم 326 قصيدة، تمثل عنواناً لسيرة حياته، صور فيها الحياة في القرن الرابع الهجري، وكان المتنبي سريع الحفظ، فقيل أنّه حفظ كتاباً نحو ثلاثين ورقة من نظرته الأولى إليه.

2– التوليد اللغوي:

أ– التوليد لغة:

ولّد الشيء من الشيء إذا أنشأ منه، وولّد الكلام أو الحديث إذا استحدثه ويعرف السيوطي المولّد في المزهر بقوله: "هو ما أحدثه المولّدون الذين لا يحتج بألفاظهم والفرق بينه وبين المصنوع، وأنّ المصنوع يورده صاحبه على أنّه عربي فصيح، وهذا بخلافه"[5]، وفي مختصر العين للزبيدي: المولّد من الكلام المحدث[6].

ومما سبق نخلص إلى أنّ التوليد رافد من روافد العربية يعمل على نمائها وتكثير مفرداتها وابتداع ألفاظ جديدة تماشيا مع أغراض المتكلّم وحالات المتلقي، وتنوّع الدلالات بحسب العصور والأمكنة.

ب– التوليد اصطلاحا:

يعتبر التوليد أحد المباحث الهامة في علم المعاني، حيث أنّه يتعلّق بالمعاني وتطوّرها واحتياجها إلى ألفاظ جديدة، وفي هذا الصدد يرى صالح بلعيد أنّه "استخراج معنى أو لفظة من معنى أو لفظة سابقة بالزيادة على الأولى عن طريق الاشتقاق والنحت"[7].

في حين يعتبر زبير دراقي التوليد في العربية من "عوامل استمرار تطوّرها الطبيعي، وذلك أنّ لكلّ زمان مستحدثاته وابتكاراته حتّى اللغوية منها، ولا يمكن للإنسان الذي عاش في أيّام الإسلام المجيدة أن يعبر بما كان يعبر به الجاهلي المطبوع على الحياة البدوية، فكان لابدّ من إحداث ألفاظ جديدة لتأدية معاني العصر الجديدة"[8].

وبذلك يظهر التوليد في كونه إبداعاً مستمراً يعمل على خلق واقع جديد بطريقة من الطرائق اللّغوية، ولقد نظر القدامى للمولّد بحذر لكونه يمسّ فصاحة اللغة، حتّى أنّهم قبلوا بعض الكلمات من حيث المعنى ولكنّهم رفضوها من

---

[4]– ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق : يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، المجلد2، ط1، ص:508.

[5]– السيوطي جلال الدين، المزهر، ج1، ص:242.

[6]– السيوطي جلال الدين، المصدر نفسه، ج:1، ص:242.

[7]– صالح بلعيد، فقه اللغة العربية، دار هومه، الجزائر، د ط، 2003م، ص: 110.

[8]– زبير دراقي، محاضرات في فقه اللغة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1994م، ص:130.

جهة المبنى[9]، وإذا كانت هذه هي نظرة القدامى للتوليد فإنّ المحدثين يرون أنّه يمثل أسمى خصائص العربية في التغيير والنّماء ومواكبة التطوّر الحضاري، وبالتالي لا يجب رفض هذه اللغة لكونها لغة عصر أغلقت فيه أبواب الاجتهاد لأنّ هذا الموقف لا يخدم العربية بقدر ما يجعلها جامدة في قوالب قديمة قد لا تستعمل في عصرنا هذا.

ج– مفهوم التوليد اللغوي:

يعتبر ظهور التوليد في اللغة العربية نتيجة لتعويض ما بلى من المفردات، ولسدّ الثغرات التي تنبه مستعملو اللغة إلى فراغها، وبهذا أضحت الألفاظ المولّدة مظهرا من مظاهر تطوّر اللغة العربية ومجاراتها للعصر، ممّا جعل هذه اللغة جسماً حيّاً تتوالد أجزاؤه وتتجدّد صيغه كلّما تجدّدت الأغراض والمعاني والاكتشافات.

ومن هذا المنظور يتضح التوليد اللغوي في كونه وسيلة لتجديد بنيات الصرف، واستحداث بنيات أخرى تدخل المعجم اللغوي مع مراعاة ذوق العربية وخصائصها العامّة، وبذلك يصبح التوليد اللغوي يقوم بدور توسيع أفق العربية اللغوي، إذ يفيد العربية في صوغ المصطلحات الجديدة من خلال توليد ألفاظ جديدة لما يستجدّ في عالم الحضارة ذلك أنّ الأساس في التوليد الصرفي هو حرية إبداعية في تفعيل النظام الشكلي، المستكن في اللغة ذاتها، بما يؤدي إلى ظهور مفردات جديدة، مستقلة بأبنية صرفية خاصة، ودلالات خاصة أيضا، ويكون ذلك في العربية بطرق مثل: الاشتقاق والنحت والتركيب والاختزال والقلب المكاني والإتباع الإيقاعي، فضلاً عمّا يتولد في اللغة من مفردات من جراء مبدأ المماثلة والمخالفة أو من جراء الاقتراض اللغوي كما في (المعرّب أو الدخيل).

3– عوامل التوليد اللغوي :

يحصل التوليد اللغوي في اللغة بمجموعة من العوامل الداخلية التي بفضلها تنمو اللغة وتتّسع وتتكاثر مفرداتها، ومن جملة هذه الآليات نذكر: الاشتقاق والنحت والتعريب والافتراض وفي حديثنا عن هذه العوامل لسنا بصدد إبراز أهميتها، بل عمّا يمكن أن تقدمه هذه الآليات للغة من ثراء باستخدامها لها، والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: أي من هذه العوامل يأخذ النصيب الأكبر في تنمية الثروة اللغوية؟

أ– الاشتقاق:

إنّ لكلّ لغة نظاماً معيّناً في تأليف الآلاف من الكلمات من حروفها القليلة المعدودة، والعربية بانتمائها إلى مجموعة اللغات الاشتقاقية تعتمد على الاشتقاق في توليد المفردات وتكثير الثروة اللغوية، وذلك لأنّ الكلمة الواحدة قد يتولّد منها في بعض الأحيان نحو عشر كلمات، ولنأخذ مثلا كلمة (علم) وهي اسم يدلّ على الحدث وحده أي المصدر، ثمّ ننظر ما تولّد منها من أفعال وأسماء نجد أنّ الأفعال: علم، يعلم، أعلم متولّدة منها حين أريد بيان الزمن، وأنّ الأسماء: عالم، ومعلوم متولدة منها أيضا حين أريد للدلالة على اسم الفاعل واسم المفعول، وهذه الأفعال والأسماء تحمل معنى علم مع وجود حروفها الأصلية فيها جميعا.

[9] – صالح بلعيد، فقه اللغة العربية، ص:110.

وبالتالي لابدّ أن يكون بين المشتق والمشتق منه مناسبة في المعنى والمبنى معا، وبهذه المناسبة يمكن معرفة الأصل الذي أُخذت منه الفروع، فالاشتقاق هو"أخذ صيغة من أخرى مع إبقائهما معنى، ومادّة أصلية وهيئة تركيب لها ليدلّ بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة"[10]؛ وينقسم الاشتقاق عند اللغويين إلى أربعة أقسام المتمثلة في: الاشتقاق الصغير، الاشتقاق الكبير (الإبدال)، الاشتقاق الأكبر، الاشتقاق الكبّار (النحت)[11]، وما يجدر قوله في هذا المجال هو مدى انسجام اللغة العربية بالنظام الاجتماعي للمجتمع العربي، فكما تنتظم العائلات العربية بروابط القرابة نجد الشيء نفسه في لغة العرب، وكأنّ الألفاظ المشتقة أفراد ينتسبون لعائلة واحدة.

ب– الاشتقاق الكبّار(النحت): وهو قليل في المتون العربية، حيث يدرج في باب النحت معناه "أخذ كلمة من كلمتين فأكثر مع تناسبٍ بين المأخوذ والمأخوذ منه في اللفظ والمعنى"[12]، ويعود استعمال النحت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتابه العين، فقد وضحه بعدّة أمثلة منها قوله:" أخذوا من كلمتين متعاقبتين كلمة واشتقوا فعلاً، ويتبيّن ذلك في كلمة (عبشمي) بقوله: أخذوا العين والباء من (عبد) والشين والميم من (شمس) وأسقطوا الدال والسين، فبقي من الكلمتين كلمة[13]، ولقد أجمع العلماء على أنّ ابن فارس هو صاحب النحت وإمام القائلين به بلا منازع، فقد تناوله بالتفصيل في معجمه مقاييس اللغة، وهو سماعي ولم يرد منه إلاّ ألفاظ قليلة، وقد جاء في اللغة العربية على عدّة وجوه أهمّها: (النحت النسبي، والفعلي، والوصفي، والاسمي)[14]

وعلى العموم تعدّ ظاهرة النحت وسيلة هامة في توسيع اللغة وتطويعها للتعبير عن حاجات العربي، لكن ينبغي الانتباه إلى ضرورة اعتماده في توليد المصطلحات العلمية الجديدة مع مراعاة الخفّة والذوق اللغوي للعربية.

ج– التعريب:

إنّ لغة العرب لغة ذات نظام منسجم متماسك يشدّ بعضه بعضا، تجري فيها الألفاظ على نسق خاصّ، وإنّ دخول الكلمة الغريبة في اللغة العربية شبيه بدخول الغريب في العرب والتحاقه بإحدى قبائلهم كما يتجلي في هذا العنصر أنّ إطلاق كلمة التعريب للدلالة على إدخال لفظ أعجمي إلى العربية بعد إخضاعه للوزن الذي تقبله اللغة العربية؛ أي جعل الصيغة الأعجمية ذات جرس عربي.

لقد أثبت الباحثون والمختصون بأنّ اللغة العربية كنز المفاهيم الأدبية والعلمية، فقد انتقل العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام، ومن النطاق العربي الضيّق الذي امتازت به مدنيتهم في عصر بني أميّة إلى الأفق العالمي

---

[10]– السيوطي جلال الدين، المصدر نفسه، ج :1، ص: 346.

[11]– ينظر: الخصائص، ابن جنّي، تحقيق: محمد علي النجّار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، د ط، د ت، ج:1، ص:141.

[12]– الاشتقاق، عبد الله أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د ط، 1956م، ص:33.

[13]– ينظر: العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي مخزومي وإبراهيم السامرائي، بغداد، 1981م، ج:1، ص:43.

[14] – ينظر: صالح بلعيد، فقه اللغة العربية، ص:76.

الواسع الذي تحوّلوا إليه في عصر بني العباس، فلم تعجز لغتهم عن مواجهة هذه الشؤون الجديدة، ولم تضق ذرعاً بالتعبير عن أيّة ناحية منها، بل اتسعت للعلوم والفنون على اختلاف أنواعها[15].

إنّ العرب حين يدخلون اللفظ الأعجمي في لغتهم يغيّرون بعض أشكاله ليجعلوه مجانسا لألفاظهم جاريا على قواعدهم، ومن أمثلة ذلك: كليدا وبرنامة وبنفشه وبنهره فقد عرّبوها هكذا: إقليد، وبرنامج وبنفسج وبهرج[16]. ومن المعلوم أنّ أكثر الألفاظ المعرّبة هي ألفاظ الحضارة والعلوم والفنون لاسيما في ظلّ نشاط حركة الترجمة، وبالتالي يظهر مدى ارتباط التعريب بالحضارة.

د– الاقتراض: تطالعنا بعض المعاجم اللغوية بمفهوم واحد للاقتراض الذي هو مصدر الفعل:" اقترض يقترض اقتراضاً، واقترضت منه أي أخذت منه القروض وأقرضوه أي أعطوه قرضاً، ويقال أقرضه المال أو غيره، والقرض ما تعطيه غيرك من مال أو نحوه على أن يرده إليك"[17]. ويعني الاقتباس أي الأخذ والعطاء وهذا من سنن اللغات؛ لأنّ اللغة ظاهرة اجتماعية لا يمكن تصوّرها إلاّ في ظلّ نظام للتبادل الفكري والمادي بين المجتمعات، فلا يعقل أن تتمّ عملية التبادل الحضاري غير متبوعة بتبادل لغويّ، وبالتالي فإنّ العربية اقترضت ألفاظا من لغات أخرى، حيث حافظت هذه الألفاظ على شكلها ولم تخضع للاشتقاق ولا للميزان الصرفي العربي، ولعلّ من أسباب الاقتراض في اللغة العربية الدين الإسلامي الذي ساعدها على الانتشار.

4– خصائص اللغة في شعر المتنبي:

يعدّ المتنبي من أشهر الشعراء في القرن الرابع الهجري لكونه متميّزاً بأسلوبه الفريد الذي من خلاله أرسى دعائم مذهب جديد في نظم الشعر، فقد كان يشغف باستعارات في شعره يحاول الإغراب بها على السّامعين، ويأتي لهم بشوارد يتجادلون فيها، وفي ذلك قال[18]:

أنامُ مِلءَ جفُوني عن شَوَارِدِها ويَسْهرُ الخلقُ جَرّاهَا ويخْتَصم.

ولذلك راح يوفر لشعره من ألوان الفصاحة ما يعتدّ به، ويرفع من مكانته حتى كاد يصارع الشعر نفسه في علو المكانة[19]، وهذا ما نلمسه في اختياره المحكم للمفردات الدالة على الإبداع الشعري والتفرد في المذهب الأدبي، وفي ذلك محمد زكي العشماوي: "تشكيلاته الخاصة للغة وتكويناته الفريدة التي تنتمي إليه وحده، بحيث يستطيع كلّ خبير للغة وتكويناته الفريدة التي تنتمي إليه وحده، بحيث يستطيع كلّ خبير الشعري أن يدركها ويميزها عن غيرها"[20].

---

[15] – عبد الواحد وافي، فقه اللغة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط7، 1973م، ص:244.

[16]– محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، بيروت، ط3، 1968م، ص:298.

[17]– إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، بيروت، دار الإحياء العربي، ج:2، ص:733.

[18]– أبو الطيب المتنبي، ديوان المتنبي، تحقيق: دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، د ط، 1403هـ– 1983م، ص:126.

[19]– عبد الله التطاوي، مداخلة فكرية ونفسية إلى المتنبي، مكتبة الأنجلو مصرية، د ط، 1991م، ص:95.

[20]– محمد زكي العشماوي، موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، دار النهضة العربية، د ط، 1981م، ص:250.

ولا يمكن إطلاقاً الفصل بين لغة المتنبي الحادة وشخصيته القوية المؤثرة، فلغة الشعر في ديوان المتنبي هي الوجه المدرك والمحسوس لشخصية هذا الشاعر الفذّ، ولعلّ أهمّ ما نلمسه في هذه اللغة كونها ذات بناء محكم يناسب الموقف النفسي للشاعر التي يسيطر عليه الطموح والتّعالي، إضافة إلى الهندسة الفنيّة البارعة للغة كأنّها معمار منتظم الأشكال يسعى من وراء ذلك إلى توظيف الطاقات الصوتية في اللغة واستغلالها استغلالاً يتناسب مع الأغراض الشعرية، وما يلاحظ في ديوانه أنّه تفرّد بأنماط لغوية خالف بها الشعراء المعاصرين وكذا السابقين منهم.

وتتجلّى مظاهر الاختلاف عند المتنبي في هذه العناصر:

– لغة المتنبي الشعرية ذات طاقات تعبيرية غير محدودة تتناسب مع ثورية الشاعر اللامتناهية، وذلك من خلال مطالع قصائده–وبخاصة قصائد المدح والفخر– التي تتجلّى فيها براعة الاستهلال لما حوته من تراكيب غريبة إضافة إلى التقديم والتأخير والحذف، فهو يتصنّع الأساليب العربية كي يرضى أصحاب الغريب في اللغة، ومن ذلك مطلع قصيدته:

ألا كُلُّ مَاشِيَةِ الخَيْزَلَى فِدَى كلّ ماشِيَةِ الهَيْذَبَى [21]

فيرى القارئ أنّ المتنبي يخرجها إخراجاً لغويّاً، إذ يحشد فيها الألفاظ الغريبة حشداً، وكأنّه ليس له وجهة إلاّ أن يعبر تعبيراً لغويّاً غريباً حتّى ينال إعجاب اللغويين من أصحاب الغريب.

– لجوء المتنبي إلى نسق فنّي مغاير لإبداع لغة جديدة حادة الإيقاع فيها تجسيد للمزاج المؤثر والشخصية القوية للشاعر[22].

ولعل القارئ يلاحظ أنّها المرّة الأولى التي نصادف فيها شاعراً عباسيّاً يتصنّع في شعره تصنّعاً نحويّاً، يدفعه إلى ذلك حبّ التفوق في أوساط اللغويين في عصره من أمثال: ابن دريد(321هـ)، وأبي علي الفارسي(377هـ)، وابن جنّي(392هـ)، وغيرهم من علماء ذلك العصر.

5– أشكال التوليد اللغوي في شعر المتنبي:

لقد خلق المتنبي طبيعة كاملة من الكلمات في مستوى طموحه: ترجّ، تتقدم، تجرف، تهجم، تقهر، تتخطّى النظام السائد –وكأنّها جواب كيانه الداخلي هذه الكلمات تتوالد باستمرار لكون إنسان المتنبي موجة لا شاطئ لها– دائما على حركة، فهو أوّل شاعر عربي يكسر طوق الاكتفاء والقناعة، ويحول المحدودية إلى أفق لا يحد، وهذا ما يتجسّد في أنماط التوليد والخلق لمفردات تنسب إليه وحده، فلقد تجرّأ المتنبي واقتحم قواعد العربية باشتقاقات غريبة وجموع لا قياس لها عند الصّرفيين، وكان يورد هذه المفردات على المنهج الكوفي، وفيما يلي رصد لأنماط التوليد الصرفي في شعر أبي الطيب.

قال المتنبي:

شِيَمُ اللّيالي أنْ تُشكِّكَ ناقَتي صَدْري بها **أفضَى** أم البَيداءُ [23]

---

[21]– الخيزلي: مشية فيها استرخاء، والهيدبى: مشية فيها سرعة، ينظر: عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1407هـ– 1986م، ج:1، ص:182.

[22]– أيمن محمد زكي العشماوي، قصيدة المديح عند المتنبي وتطوّرها الفني، دار المعرفة الجامعية، د ط، 1999م، ص:220.

[23]– المتنبي، ديوان المتنبي، ص: 126.

يرى ابن وكيع أنّ أفضى رباعي من أفضى يفضي لكن سليمان المعمري يردّ على ذلك الاحتمال كون أفضى اسماً وفعلاً فهو في الاسم بمعنى التفضيل، وفي الفعل بمعنى أفضى إلى الشّيء، وهذا ما يلاحظ في إيراد المتنبي لأفعال في صيغة (أفعل) للتفضيل ممّا حيّر اللغويين في كونها اسما أم فعلا.

وفي موضوع آخر يقول المتنبي:

فَرُؤوسُ الرّمَاح **أذْهَبُ** للغَيْـ ـظ وَأشفَى لِغلّ صَدر الحَقُودِ[24]

إذ نراه استعمل اسم التفضيل من غير الثلاثي، لكنّ النحاة لم يبيحوا القياس عليها ومنعوا اشتقاق صيغة اسم التفضيل من غير الثلاثي، إلاّ أنّ العرب استعملته في كلامه فيقال هذا المكان أفقر من غيره[25].

وقال المتنبي:

فِدًى مَنْ على الغَبراءِ أوّلهُمْ أنَا لهذا الأبيّ المِاجِدِ **الجائدِ** القَرْمِ[26]

نجده اشتق اسم الفاعل "الجائد" من جاد يجود قياسا وإن لم يسمع عن العرب، فقد استعاضوا عنه بالصفة المشبهة باسم الفاعل "جواد لخفتها ورشاقتها"[27]. أمّا الجموع التي وظّفها أبو الطيب في قصائده فهي جموع نادرة تعود في معظمها إلى المذهب الكوفي، ومن أمثلة ذلك قوله:

وَكيفَ التذاذي **بالأصائل** وَالضّحَى إذا لم يَعُدْ ذاكَ النّسيمُ الذي هَبّا[28]

لقد أورد المتنبي أصائل وهو جمع الجمع، لكنّ المستعمل منه هو أصل وأصال، وبذلك نجد المتنبي يغرف من بحر الفصاحة في الوقت الذي فسدت فيه الألسنة وشاعت البساطة، فهو بذلك باعث اللغة الفصيحة من منابعها الصافية إلى الاستعمال اللغوي، ليعيد لهذه اللغة سموها ورفعتها، لاسيما أنّ عصر المتنبي تميّز بانحطاط الأمّة العربية، وسيطرة النفوذ الفارسي الأعجمي، فكانت النخوة العربية تبرز واضحة في شعر المتنبي.

ويستمر المتنبي في توليد جموع جديدة نرصد بعضها في هذه النماذج[29]:

البيت	الجموع المولدة	الجموع المستعملة الشائعة

[24]– المتنبي، المصدر نفسه، ص:21.

[25]– شرف الدين الراجحي، مآخذ النحاة على الشعراء حتّى القرن الرابع الهجري، دار المعرفة الجامعية، د ط، 2000م، ص:133.

[26]– المتنبي، ديوان المتنبي، ص:82.

[27]– شرف الدين الراجحي، مآخذ النحاة على الشعراء حتّى القرن الرابع الهجري، ص:138.

[28]– المتنبي، ديوان المتنبي، المصدر نفسه، ص:325.

[29]– كلُّ **أخَـانه** كِرَام بني الدُّنيَـا ولكنَّه كريـمٌ كريـــمُ إخْـوَانِ

أَرُوضَ النّاس مِنْ تُربٍ وَخَوْفٍ وَأرْضُ أبي شُجَاع مِنْ أمَـانِ

إذَا كانَ بَعضُ النّاس سَيفًا لدَولَةٍ فَفي النّاس **بُوقاتٌ** لهَا وطُبُـولُ

أحِبُّـه والهـوَى **وَأدْوَارهُ** وَكُـلُّ حُبٍّ صَبَـابةٌ وَوَلَـهُ

إنْ حَـلّ فارَقَتِ الخَزائِنُ مَـالَهُ أوْ سارَ فَارَقَتِ الجُسُومُ **الرُّوسَـا**

لأحِـبَّتِي أنْ يَمْـــــلأُوا الصَّافِيَـاتِ **الأَكْـؤُبَـــا**

1	آخـــــائه	الإخوة والإخوان
2	أروض	الأرضون والأراضي
3	بوقـــات	أبواق
4	أدور	ديار ودور
5	الروسا	رؤوس
6	الأكـؤب	أكواب

وعطفا على ما سبق، نلفي المتنبي يستعمل كلمات جديدة تنسب إليه وحده ومنها: الكيذبان بدلاً من الكذّاب، والهرمان بدلا من الهرم، والتوارب بدلا من التراب، والوجدان بدلا من الوجود، ولعلّه السبب الذي جعل العلماء يشرحون شعر المتنبي مراراً وتكراراً؛ لما فيه من غرابة كونه انتهج المذهب الكوفي؛ إذ الناس في عصره هجروا هذا المذهب إلى النحو البصري، ويبقى أبو الطيب شاعرا من طينة الكبار يجعل اللغة طيّعة، يشكلها كيفما يشاء، فنيتج قصائد قمّة في الجمال والحكمة.

6– الاشتقاق في الأغراض الشعرية:

إنّ الاشتقاق هو الطاقة التي تتوالد بها الألفاظ من أصل جذري واحد، فتتكاثر المفاهيم وتتباعد، وتكمن طاقته في توليد المفردات؛ لأنّ في اللغة دوما رصيد كامن من الصيغ غير وارد، ولقد تبارى الأدباء اللغويون قديماً وحديثاً في توليد الألفاظ اعتماداً على آلية الاشتقاق وذلك بصبّ الجذور الثلاثية أو الرباعية في قوالب أو صيغ لإنتاج مفردات جديدة لمدلولات جديدة، ويعدّ المتنبي من جملة هؤلاء الأدباء الذين وظفوا الاشتقاق الصغير ونقصد به الاشتقاق الصرفي في إنتاج قصائده التي حفظت على مرّ العصور، وفي هذا السياق سنتطرق للاشتقاق الصغير في أربعة أغراض شعرية لدى المتنبي.

أ– غرض المدح:

تحدث الشاعر بحضرة سيف الدولة أنّ البطريق أقسم عند ملكه أنّه يعارض سيف الدولة في الدرب ويجتهد في لقائه، وسأله إنجاده ببطارقته ففعل، فخيّب الله ظنّه وأتعس جده، فقال المتنبي هذه القصيدة، وأنشده بحلب سنة خمس وأربعين وثلاثمائة[30]؛ قال المتنبي مادحاً سيف الدولة:

عُقْبَى اليَمين على **عُقْبَى** الوَغَى ندم ماذا يزيـــدُكَ في إقدامِكَ القَـسَمُ[31]

وَفي اليَمين على ما أنْتَ **وَاعِـــدُهُ** مَا دَلّ أنـّكَ في **الميـــعادِ** مُتّـهَـمُ

آل الفَتى ابنُ شُمُشْقيق فأحـــتْنَتَهُ فَتًى منَ **الضّرْبِ** تُنْسَى عِنْدَهُ الكَـــلِمُ

وَفَاعِلٌ ما اشتَهَى يُغنيهِ عن **حـلِفِ** عَلى **الفِعْل** حُضُـورُ الفعل **وَالكـرَمُ**

[30]– ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المصدر نفسه، ص:556.

[31]– عقبى: العافية، ينظر:عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ص:443.

كلُّ السّيوفِ إذا طالَ **الضّرَابُ** بـهَا يَمَسُّهَا غَيْرُ سَيْفِ الدَّولـةِ السّـأمُ
لَوْ كَلّتِ الخَيْلُ حتى لا **تَحَمّلَـهُ** **تَحـمّلَتْهُ** إلى أعْـدائِهِ الهـمَمُ
أينَ البَطارِيقُ **وَالحَلْفُ** الذي **حَلَفُوا** بمَفرِقِ المَلْكِ **وَالزّعمُ** الذي **زَعَموا**[32]

سنرصد حركية توالد المشتقّات في هذه القصيدة وهي على النحو التالي: عقبى، الميعاد، الضرب، الضراب، فاعل، الفعال، تحمّلته، الحلف، الزعم، كلّها مشتقات مولدة من الجذور اللغوية الآتية: عقب – واعد– ضرب– فعل– حمل – حلف– زعم، وتأسيسا على ذلك تتوالد الصيغ الصرفية – في غرض المدح عند المتنبي– بعضها من بعض وكأنّها سيل دافق يفرضه المقام وسياق الكلام، ومن خلال الجدول نجد الشاعر يوظف اسم الفاعل(واعده، فاعل) وصيغة المبالغة (الضراب)؛ لأنّ الغرض هو المدح، كما نراه قد استعمل الجمع (الفعال، حلفوا، زعموا...) وذلك لتمجيد ممدوحه وتعظيمه.

ب– غرض الهجاء:

قال المتنبي في هجاء إسحاق بن الأعور بن إبراهيم كَيَغْلَغ:

ذُو العَقل يَشقَى في النّعيمِ بعَقْلِهِ وَأخو الجَهالَةِ في الشّقـاوَةِ يَنـعَمُ
وَالنّاسُ قد نبَذُوا الحِفاظَ فَمُطلَقٌ يَنسَى الذي يُولِي وَعـاف يَنْـدَمُ
لاَ يَخْدَعَـنَّكَ مِنْ عَدُوّ دَمْعهُ وَارْحَمْ شَبـاَبَكَ مِنْ عَدُوٍّ تـرْحَمُ
لا يَسلَمُ الشّرَفُ الرّفيعُ منَ الأذى حتّى يُرَاقَ عَلى جَوانِبِهِ الدّمُ
يُؤذِي القَليلُ مِنَ اللِّئَامِ بِطَبْـعهِ مَنْ لا يَقِلّ كَـمَا يَقِلّ وَيَلـؤمُ
وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النّفوس فإن تجدْ ذَا عِفـّةٍ فَلِعـلّةٍ لاَ يَظْلِـمُ[33]

نسجل من المقطوعة السابقة المشتقات وفق التسلسل التالي: العقل، بعقله يشقى، الشقاوة النعيم، ينعم عدو، ترحم القليل، يقل اللئام، يلؤم– الظلم كلها صيغ صرفية متولدة من المواد اللغوية: عقل– شقي– نعم– عدو– رحم– يلؤم– يظلم

ومن خلال ما سبق ذكره نلاحظ كمًّا من المفردات الدالة على الهجاء والذمّ، نحو: الشقاوة، عدو، القليل، اللئام، الظلم) إضافة إلى أفعالها على غرار: يشقى، يقل، يلؤم، يظلم، هذا وتتلاحم المشتقات فيما بينها لتشكّل جرساً موسيقيّاً لأبيات القصيدة كلّها.

ج– غرض الرثاء:

يرثي المتنبي أبا الهيجاء عبد الله سيف الدولة قائلاً:

يَفْطِـمُهُ التّـوْرابُ قَبلَ فِـطامِهِ و**يأكُـلُهُ** قبلَ البُلُـوغِ إلى **الأكلِ**

[32] – المتنبي، ديوان المتنبي، ص:419.
[33] – المتنبي، المصدر نفسه، ص: 571.

وقبلَ **يرَى** من جـــودِهِ ما **رأيتَهُ** ويَسمَعُ فيهِ ما سمعتَ من العـذلِ
ويَلقَى كمَا **تَلقَى** من السّلمِ والوَغَى **ويُمسِي** كمَا **تُمسِي** مَليكاً بلا مِثلِ
تُوَلّيـهِ أوساطَ البِلادِ رِمـاحُهُ وتَمْنَـعُهُ أطرافُـهُنّ منَ العَزْلِ
أتَبْكي **لمَوتانا** على غَـيرِ رَغْبَةٍ تَفُوتُ مِنَ الدّنْيا ولا مَوْهـبٍ جَزْلِ
إذا ما تأمّلتَ الزّمانَ وصَـــرْفَهُ تيَقّنْتَ أنّ **الموْتَ** ضرْبٌ من القتلِ
وما الدّهرُ أهلٌ أنْ تُؤمَّلَ عِندَهُ حَياةٌ وأنْ يُشتاقَ فيهِ إلى النّســلِ[34]

مما سبق يتضح أنّ عدد المشتقات الفعلية يمثل أكبر نسبة للأبيات المذكورة أعلاه نحو:يفطمه فطامه، يأكله الأكل، يرى رأيته، يلقي تلقى، يمسي تمسى، موتانا الموت، وفي ذلك دلالة على استمرارية أفعال المرثي خالدة بالرغم من موته، كما أنّ استعمال صيغ المضارع دلالة حضور المرثي بين أهله ومحبّيه على الدوام الآن وفي المستقبل.

د– غرض الوصف:

ينشد المتنبي واصفاً الأسد:

أعْدَى الزّمانَ **سَخاؤهُ فَسَخا** بهِ ولَقَدْ يكـونُ بهِ الزّمانُ بَخيـلا
وكأنّ برْقاً في مُتُونِ غَمامةٍ هِنْدِيُّهُ في كَـفّهِ مَسْلُـولا
ومَحَـلُّ قائِمِهِ **يَسيلُ** مَواهِبـاً لَوْ كُنّ **سَيْلاً** ما وَجَدْنَ **مَســيلا**
رَقّتْ مَضـارِبُهُ فَهُنّ كأنّمَـا يُبْدينَ مِنْ عِشقِ الرّقابِ نُحُـولا
أمُعَفِّرَ اللّيْثِ الهـزَبْرِ بسَوْطِـهِ لمِنِ ادّخَرْتَ الصّارِمَ المصقـولا
وَقَعَتْ على الأُرْدُنّ مِنْهُ بَلِيّةٌ نُضِدَتْ بها هامُ الرّفـاقِ تلـولا
ورْدٌ إذا **وَرَدَ** البُحَيرَةَ شارِبـاً **وَرَدَ** الفُراتَ زَئِيرُهُ و والنيــلا

على ضوء هذا التحديد ومن خلال هذا التصنيف نلاحظ أنّ المشتقات المذكورة في الأبيات السابقة والمتمثلة في: سخاؤه، فسخا من الجذر اللغوي (سخا)، ويسيل سيلاً وسيلاً ومسيلاً من المادة اللغوية (سال)، ووَرِد وَرْد وِرْد من الفعل (وَرَدَ) لم تتكرّر بصفة أكثر؛ لكون الشاعر يعدّد لنا صفات وأسماء موصوفة بالتدقيق، حتّى تتراءى للقارئ والمستمع صورة الأسد لوحة فنية رائعة أبدعتها أنامل فنّان متميّز، ولهذا الغرض أكثر المتنبي من توظيف الأسماء والصفات للدلالة على الثبوت والاستمرار بالمقابل كان استعمال الأفعال محدودا جدّا، لأنّ غرض الوصف تناسبه الصفات والأسماء.

يترتب على السالف ذكره أنّه ومن خلال رصدنا لبعض المشتقات ووظائفها في الأغراض الشعرية عند المتنبي، تبيّن أنّ الشاعر كان يكرّر الجذر اللغوي الواحد في البيت الواحد عدّة مرّات أحيانا، فنجد البيت الشعري يضمّ الاسم

[34] – المتنبي، المصدر نفسه، ص:280–281.

والفعل والصفة إلى غير ذلك من المشتقات، وإن كانت هذه الظاهرة غير عامة في كامل شعر المتنبي إلاّ أنّها تشمل جزءا لا بأس به من إنتاجه الشعري بشتى أغراضه.

خاتمة:

وصفوة القول أنّ اللغة الشعرية لدى المتنبي حافلة بالأبنية المستحدثة التي تتلاءم مع الطاقات التعبيرية للإبداع، والتي تتطلب توظيف جميع الإمكانات اللغوية لإنتاج نصوص شعرية خالدة، ولعلّ هذا ما يتطلب الاستعانة بآلية الاشتقاق لصياغة مفردات جديدة، كما يتجلّى تفاوت درجات استعمال الصيغ الصرفية في الأغراض الشعرية لدى المتنبي؛ إذ استطاع هذا الشاعر استحداث صيغ صرفية تتجاوز أسوار القواعد النحوية، والتي بفضلها حقّق التفرّد والتفوّق في نظم الشعر.

قائمة المصادر والمراجع:

1- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ، دار الإحياء العربي، بيروت، لبنان، ج2

2- ابن جنّي، الخصائص،تحقيق: محمد علي النجّار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، دط، دت، ج:1

3- ابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

4- أبو الطيب المتنبي، ديوان المتنبي، تحقيق: دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، د ط،1403هـ- 1983م.

5- أمين الخولي وآخرون، تاريخ الحضارة المصرية، مكتبة مصر، القاهرة، ط1979م، المجلد2.

6- أيمن محمد زكي العشماوي، قصيدة المديح عند المتنبي وتطوّرها الفني، دار المعرفة الجامعية، د ط، 1999م.

7- الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق: مهدي مخزومي وإبراهيم السامرائي، بغداد، 1981م.

8- زبير دراقي، محاضرات في فقه اللغة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط :2، 1994م.

9- السيوطي جلال الدين، المزهر، ضبط وتصحيح، فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ- 1998م.

10- شرف الدين الراجحي، مآخذ النحاة على الشعراء حتّى القرن الرابع الهجري، دار المعرفة الجامعية، د ط، 2000م.

11- صالح بلعيد، فقه اللغة العربية، دار هومه، الجزائر، د ط، 2003م.

12- عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1407هـ- 1986م.

13- عبد الله التطاوي، مداخلة فكرية ونفسية إلى المتنبي، مكتبة الأنجلو مصرية، دط، 1991م.

14- عبد الله أمين، الاشتقاق، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د ط، 1956م.

15- عبد الواحد وافي، فقه اللغة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط7، 1973م.

16- المتنبي، ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، دط، 1983م.

17- محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، دار الفكر، بيروت، ط3، 1968م.

18- محمد زكي العشماوي، موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، دار النهضة العربية، دط، 1981م.

19- محمد سهيل طقوش، تاريخ الحضارة العباسية، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط7، 1430هـ- 2009